قصة

أطياف الغسق

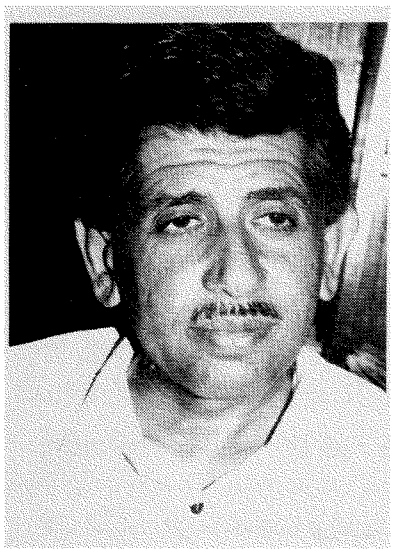

محمد خضير

١ ـ الشّبح

أين يُلقىٰ بالأنقاض والنفايات والأجسام العضويّة المتفسّخة؟ أين تصير الأحلامُ والأفكارُ الرّثّة والتجاربُ الفاشلة؟ أين يذهب الزّمن المتسارع، أو المتباطئ، الذي ينقل هذه الأنقاضَ إلىٰ مقبرتها؟ بل أين هذا المكان الذي لا يتحرّك، وتتحرّك فيه الأشياءُ الميتة؟

فكّرَ النحّاتُ الجليلُ الشّأن، الحفيدُ الرّابعُ لمنعم فرات، (ويكتفي باسم فرات الرّابع) بهذه الأسئلة وهو يقود سيّارته علىٰ الطّريق الدّائريّة الخامسة نحو بقعة الصّحراء التي تركتها المدينة الجديدة علىٰ الحافة الدائريّة السّابعة. كانت الصحراءُ المكانَ الوحيد الذي نجا من تدهور المدينة القديمة. لم تفسد فيها جاذبيّتها الهائلة لما تبقّىٰ من الماضي، وما استُحدثَ بعد ذلك من حياة. أيكون ذلك الامتدادُ الفارغ موطنَ الأشياء الرّاحلة من مركز المدينة الحيّ؟ أيكون ذلك الثّقبُ الأبيض مصدرَ الرّؤىٰ التي تسلك الطّرق السّبع الدّائريّة لتتدخّل في إفساد التصاميم الكثيرة التي وضعها النحّات، مع مساعديه في مركز الفنون، للتمثال الكبير الذي اقترح نصبَه علىٰ حافة الصّحراء؟

تسارعت الأفكارُ مع تسارع السيّارة، وكانت آخر فكرة خطرت بباله فكرةَ أفلاطون عن «المدينة المكتفية التي تمتاز علىٰ المدينة العظيمة». فقد كان يدنو من قوس الصحراء المزروع بهوائيّات الاتّصال، وقرص مرآة الأبعاد، وأسطوانات دار الموسيقىٰ المثقبة. ارتسمت في ذهنه حالاً صورةُ الدّماغ الكبير لمحطّة الاتّصال، المهيمن علىٰ مراكز الرّؤيا الكبرىٰ في المدينة، وأحسّ باتّساع المدىٰ الرّؤيويّ المغبّش الذي يحيط بالطرق الدائريّة للمدينة وقلبها. وراءه الآن قرصُ المرآة الذي يعكس شروقَ الشمس، وخلفه حاسباتُ دماغ محطّة الاتّصال التي تضخّ الإشارات الضوئيّة عبر «كابلات» الألياف البصريّة إلىٰ البرج الشمسيّ، ومحطّة التلفاز، ومرقاب الرّسائل الضوئيّة، ودار الطّباعة، ومركز الفنون الذي يعمل فيه النحّاتُ فرات الرّابع.

اجتازت السيّارةُ آخرَ علامتين وهما مجموعة من الأسطوانات المثقبة، وبئر زلزل. وتوقّفتْ علىٰ حافة البقعة المشرقة التي تصاغرتْ إلىٰ مسافة وقفةٍ بين نغمتين، ثقبٍ سلبي، مقبرة صمت تمتصّ إفرازات الأحياء السّاكنين داخل الدّائرة المكتفية، المنظّمة خير تنظيم. وأمامهُ الآن التلّ الذي كان يقصدهُ في أوقات مختلفة للتصوير، وإلىٰ جانبه علىٰ المقعد الأمامي ترقد كاميرا الأطياف في صندوقها.

ترجّل حاملاً الكاميرا، وأشعرته الرّمالُ النّاعمة التي وَطئها بالضّوء الفاتر والنسمات الصيفيّة المبكرة. لم يحصل في الأيّام الماضية من الصّور الطيفيّة التي حلّلتها مطيافاتُ مركز الفنون إلاّ علىٰ أشكال سطحيّة ثنائيّة الأبعاد، دائمة التحوّل والروغان. كانت الصّورُ انعكاساتٍ أوّليّة لأطيافٍ لم تلهمه تصميمَ تمثالٍ واحد على الورق أو بالأسلاك أو بالصلصال. كان يتوق إلىٰ شكل ثلاثيّ الأبعاد، بل إلىٰ شكل تمثالٍ فراغيّ كامل يتجسّم في أربعة أبعاد، أو خمسة، أو أحد عشر بُعداً. وهو يتحرّق إلىٰ الموجة الضوئيّة الكاملة التي تختبئ في اهتزازاتها نبضاتِ روحِ تمثاله المفقود، وتتجسّم في الفراغ علىٰ التلّ أمامه. كان واثقاً من لَقاء التمثال الخفيف الذي سيغيّر الزمانُ والضّوءُ كتلتهَ مع انصرام كلّ صباح، وتقلّبه الجاذبيّة علىٰ إحدىٰ عشرة وسادة

فضائيّة. تمثال يحلم، يحلّق، يتحوّل في الفراغ.

وكما حدث بالأمس، وقبل الأمس، ويتكرّر في قصص المستقبل، يلتقي الإلهامُ بشبحه، في جولة قصيرةٍ شحيحةِ الضّوء. وحين كان النحّاتُ يهمّ بارتقاء التلّ، انبثق الشّبحُ من السّفح الخلفيّ واستوىٰ علىٰ قمّة التلّ، في مكان التمثال. وكما يحدث في مثل هذه اللّقاءات، فإنَّ ما يُسَمّىٰ بصدمة الأشباح لا تمكث إلاَّ دقائق، إذ لا يلبث الإلهام أن يأخذ زمام المبادرة، ويزول الخوف مع زوال شوائب الضّوء واتّضاح شخصيّة الشّبح.

انتظر الاثنان أن يبادر أحدهما بابتداء الجولة، وينطق بكلمة تحطّم زمانَ الأحياء أو ديمومة الموتىٰ. ليس مستغرباً أن تكون الأشباح أكثر جرأة، فتصفع الإلهام الذي ظلّ يبحث عن تركيز أشدّ. قال الشّبح بلهجة قديمة: «آنه منعم فرات. جدّك الأكبر. راقبتَك تروح وتجي علىٰ هاذه المكان كلّ يوم. شتصوّر؟».

أجاب النحّات: «أبحث عن شيء يشبه تماثيلك. هل أنت جدّي حقّاً؟».

قال الشّبح: «لو ما جدّك ما تورّطت واجيت.»

قال النحّات: «إنّها لحظة عظيمة انتظرتها طويلاً. أريد أن أعرف، لمَ ظهرتَ الآن؟»

قال شبح منعم فرات: «هسَّه آنه روح. شبح مثل ما يگولون. آنه روح من الأوّل. لحگتني تماثيلي. أرواح مثلي. المدينة مليانه أشباح.. أرواح. هاي الكاميره جنّنتني. شتصوّر؟»

قال النحّات: «لم يظهر شيء حتىٰ اللّحظة. مجرّد أطياف. ماذا يحدث هنا في الصحراء أيّها الجدّ؟ إنْ لم يخطئ حدسي فأنت أمير الأشباح كما كنت ملكاً علىٰ تماثيلك.»

استدار شبحُ منعم فرات، والتفَّ في الضّوء ونفذَ فيه، بعد أن قال: «بعدين.. بعدين..».

صاح النحّاتُ الحفيدُ: «إلىٰ أين تذهب؟. مهلاً...»

كان الشّبح طَوالَ وقت المحادثة الخاطفة متأوّداً، متبرّماً من الطّريقة التي يتحدّث بها حفيدُه. كانت لهجة الحفيد وظيفيّة، متمدّنة، جلبت النّكد وسوء الطّالع علىٰ حياته السّابقة المضطربة. آنذاك، كان الموظّفون يعرضونه علىٰ الزوّار الأجانب مثل شبح فطريّ نادر. اكتشفوه علىٰ قارعة الطّريق، وكانوا في الأغلب زائرات جذبتهنّ صراحةُ الأوضاع الجنسيّة لتماثيله، وعنفوانُ طلعته الرّيفيّة الخشنة. سخروا من أشباح عبقريّته التي كانت تهذي في دماغه، لكنّهم أرسلوا تماثيله إلىٰ معرض الفنّ الفطري في «براتسلافا» وطلبوا منه السّفر معها. كان خائفاً من ركوب الطائرة، وقبل يوم من افتتاح المعرض اتّجه جنوباً إلىٰ أطلال «بصرياثا» مع جوقة تماثيله، بدلاً من رحلة الشّمال.

وفوق ذلك، فإنَّ الأشباح الحقيقيّة لا تعمّر طويلاً، وربّما كانت تعدّ الدّقيقة التي تظهر فيها للعيان دهراً. لم تعد تكترث لزمن الأحياء ولا يعجبها حديثهم الذي لا معنىٰ له. هل لاحظ النحّاتُ الحفيدُ ضَجَرَ جدّه ورغبته في الاختفاء السّريع؟ أغلب الظنّ أنَّ صدمة الظهور الأولىٰ ملأت عَيْنَي الحفيد بالسطوة المعروفة عن جدّه علىٰ مَنْ تقابله. كان يحسُّ بالامتنان الحقّ، والخشية العميقة، والبرهان السّاطع علىٰ وجود حياة متوارية خلف الأطياف التي التقطتها كاميراه.

لكنّ صدمة الأشباح الثانية كانت أقوىٰ وأشدّ رسوخاً في إلهام النحّات الحفيد. لقد امتلأتْ جوانبُ التلّ الذي ظهر عليه الشّبحُ بآثار أقدام صغيرة، آثار أشباح حيوانيّة قليلة الغور في الرّمال. ظلّتْ أشباحُ الأتباع متوارية حتّىٰ انتهىٰ الشّبحُ الأكبر من حديثه مع حفيده. لن تجبر شبحاً علىٰ الظّهور، ولن تقدر قوّة علىٰ استحضاره؛ فحين يتجسَّدُ شبحٌ فلأنَّه يرغب في ذلك، وهو الذي يحدّد المكان والوقت والمناسبة. لكنّ أشباح منعم فرات الحيوانيّة لم تبتعد كثيراً عن منطقتها. إنَّها هناك في ظلّ المدينة الأصليّة منذ هجرتها الأولىٰ. ولم تلتقط الكاميرا إلاَّ أطيافاً قليلة منها.

٢ ـ طبس الأوّل

إضافة إلىٰ المشاغل الثلاثة للرّسم والمسرح وحبّ التماثيل، وقاعة العرض السّينمائي في مركز الفنون، يتشعّب ممرّ يرتقي تدريجيّاً إلى مستوىٰ أعلىٰ من القاعات ويؤدّي إلى استوديو الرّؤىٰ المجسّمة الذي يحتلّ ركناً منعزلاً عن المبنىٰ. يُوصف مركزُ الفنون بأنَّه مبنىٰ الأجنحة المحلّقة، المشيَّد من هياكل حديديّة مغطّاة بصفائح الزّجاج اللّيفي العاكسة للضّوء والحرارة. ولأنَّ الأركان تتنافر علىٰ مستويات مختلفة كأغصان شجرة من دون أن تتناظر في نظام طبقيّ متدرّج، يبدو استوديو الرّؤىٰ المجسّمة، بممرّه الملتوي الطويل، كجناح يتفرّع بعيداً عن المحور الفضائيّ الرّئيس للمبنىٰ. وعلىٰ امتداد هذه الأغصان المجوّفة يدبّ النحّات إلى الاستوديو بإحساس مَنْ يرتقي المدارج إلى جوفِ كهفٍ في قمّة جبل من العصور القديمة. كان قبل دخوله يتطلّع إلى البناء العملاق بأجنحته المتفرّعة التي تعكس الطّيف الشمسيّ. وحينما نظر النحّات إلى المبنىٰ، في ذلك الوقت من الصّباح إثر عودته من رحلته اليوميّة لتصوير الصّحراء، بدا له المركز نفسه تمثالاً يشعّ بالضّوء الأزرق، مُزاحاً إلىٰ المنطقة البنفسجيّة من الطيف.

إلاَّ أنَّ النحّات كان يتقدّم من مكان حُرم سكّانه من ضوء النهار. فقد كان الاستوديو مظلماً، بل كان غارقاً في سواد كامل. كان أشبه بصندوق كبير مبطّن بالجدران السّود، وكان النحّات ومساعدوه عُمياناً يتجوّلون فيه بمساعدة نظّارات خاصّة تحيل الذرّات السّود التي يتنقّلون في فراغاتها إلى أجسام مرئيّة. كان موظّفو أجنحة المركز وفنّانوها يعلمون بعزلة فنّاني الاستوديو السّوداء، وربّما حسبوهم جميعاً أطيافاً سوداء غير منظورة في عالمهم المغلق، فلم يقتربوا من مكانهم ولم يدخلوه. وأصبح جهاز التحكّم الالكتروني الوسيلةَ الوحيدة لاتّصال فنّاني الاستوديو بالخارج.

انفتح بابُ الاستوديو تلقائيّاً، وأخرج النحّات نظّارة الرّؤية من غلافها وثبّتها على محجريه. فوراً أصبح كلّ شيء مرئيّاً في الظلام الكامل، واجتاز النحّات ممرّاً محفوفاً بأجهزة التحليل الطيفيّ، المزوّدة بحاسبات صغيرة، يعكف أمامها مبرمجو الاستوديو على تحليل أطياف الصّور التي التقطها النحّات في الأيّام السّابقة. كان عدد المبرمجين عشرة يجلسون في صفّين متقابلين ويتقنّعون جميعاً بنظّارات الرّؤية. وحالما استقرّ النحّات أمام أحد المطيافات، دبّ العمل في الشّاشات الصغيرة، وسجّلت الحاسبات أشرطة مغناطيسيّة جديدة من الصّور المتحرّكة التي ستُعرض لاحقاً على شاشة مجسام الاستوديو الكبيرة، بعد أن يحوّلها جهاز التحكّم الالكتروني من المطيافات.

وجّه النحّات ملاحظته الأولى للمبرمجين: «أعتقد أنّنا سننتقل إلى مرحلة جديدة من تشكيل صورة تمثالنا. سأتمالك نفسي ولا أضيف ما يدهشكم. لكنّي أحبّ أن أنبّهكم إلى أنّ صور هذا الصّباح تختلف عن الصّور السّابقة. وإذا كنت مصيباً في حدسي فإنّنا مقبلون على خطوة حاسمة من عملنا.»

التفتت نحو الطيف الأسود وجوهُ المبرمجين المقنّعة بالنظّارات الواسعة العدسات، وقد التهمَ الظّلامُ منها التعبيرات البشريّة لوجوه النّهار. ثمّ عادت لترقب التحوّلات الطيفيّة للأهداف المصوّرة. كان الهدف المصوّر يرسم حوله موجات حلقيّة من نقطة مركزيّة. وكان تعدّد الحلقات وتسلسلها يكشفان عن تعدّد الأهداف على جبهة موجيّة واسعة، غمرت المطيافات بألوان متدرّجة من الحلقات الحمر إلى الحلقات البنفسجيّة.

راقب النحّات المطيافات طويلاً، واخترق عدستيْ نظّارته إشعاعُ الفكرة الواشية بفعاليّة الحياة الكامنة في ضوء الصحراء وظلالها، واتّسعت حلقاتها الوهّاجة اتّساعَ الحلقات المتولّدة في سطح مائيّ متموّج. في مراكز هذه الحلقات يختبئ شبحُ منعم فرات الذي تراءى له هذا الصّباحَ مع أطياف أتباعه. هناك يستترون ظلالاً شفّافة، أو هياكلَ ضوئيّةً، أطيافاً أو ما أشبه، يرسلون موجاتهم بمختلف الأطوال. فإن كانت الأطياف تنحاز إلى المنطقة الحمراء من الطّيف فلأنّها خاملة، مراوغة، متحوّلة. لكنّها حين تمتصّ أشعّة الكاميرا التي تثيرها فإنّها تنحاز إلى المنطقة البنفسجيّة، وتبدأ بالتكاثر والتناسخ والاقتراب من مصدر الأشعّة المحفّزة. أحياناً تكون خضراء ساطعة، أو صفراء ناصعة، ثمّ تبدأ بالانزياح إلى طرفي الطّيف الأحمر والبنفسجيّ، فتفلت من سيطرة المطياف الذي يعجز عن تحليل كنه عناصرها المركّبة، وتقدّم الحاسبات تصاميم احتمالات متعدّدة لأشكالها المجسّمة.

وجّه النحّات الملاحظة الثانية: «أرجو أن تبرمجوا للصّور الجديدة بيانات عن النحّات منعم فرات: حياته، تماثيله، لهجته، حادثة وفاته.»

استمرّ العمل أيّاماً لتحويل أطوار الأطياف الحلقيّة الجديدة وشدّتها إلى بيانات صوريّة في حاسبات المطيافات. ثمّ سُرّبت البياناتُ إلى ذاكرة جهاز التحكّم في شاشة غرفة التظهير المجسّم. كانت برمجة البيانات ونَسْخُها على شريط صوريّ متحرّك يولّدان أطواراً خاصّة من الجهد واللّذّة. كان العمل يتطلّب ضبط حالة التّداخل بين موجات إشعاع الكائنات الطيفيّة وموجات الشعاع السّاقط على لوح المجسام من جهاز ليزر. وكان النحّات ينتظر نتائج البرمجة بفارغ الصّبر وأقصى درجات اللّذّة والتركيز أيضاً. كان وجلاً تهزّه ذبذبات الموجات الضوئيّة القادمة التي تزيح أمامها شكل تمثاله النهائيّ. أيكون شكلاً نهائيّاً حقّاً؟ كان خائفاً. خائفاً من جمال الطيف الذي سيتحوّل إلى هيكل حديديّ. جمال أو قبح؟ ما معنى الجمال والقبح بحقّ آلهة الفنّ؟ ليكن ما يكون، لكنّه تمثال حقيقيّ من نسل الصحراء التي لم تهجّن مواليدها. كانت فترة انتظار الصّور تغمره بطوفان من الهلوسات والبريق اللّونيّ المكتوم تحت النظّارات، لا يقلّ عن تداخل سلسلة الحلقات اللّونيّة في المطيافات.. بل لا يقلّ عن هذيان الأشكال التي بدأت بالتتابع على شريط الصّور المتحرّكة، ولن يعرف أحد من المبرمجين كيف ستبدو على المجسام.

يمكننا وصف النتائج بأنّها مطابقة تماماً لفراغ النحّات الباطني المستهام بالضّوء والصّمت. عندما استُظهرت الصّور على المجسام والمطيافات معاً، برزت للعيان أشكال مجسّمة ثلاثيّة الأبعاد، لم يرتسم لها نظير من قبل في أذهان المبرمجين وحاسباتهم. وإذا كانوا قد فكّروا بشيء أمام العرض المجسّم، ففي أنّ الأشكال نسخ مناظِرة لذلك الهيام بروائع الصحراء وكائناتها الخفيّة. أمّا إذا كانت هذه الصّور نماذج للتّمثال، فهي الوجوه المجهولة منه. وكم بُعداً أو وجهاً سيمتلك تمثال المستقبل؟ لننتظر أيّها الأصدقاء. انتظروا يا عبيد الرّؤى.. أنتم لم تروا شيئاً بعد.. انظروا إلى هذه الأشكال العجيبة: جمجمة، قرن، قوقعة، حجر.. كانت الأشكال تندمج وتتوهّج في لفافة ضوئيّة قبل أن تتحلّل إلى جسيمات منفردة بثلاثة أبعاد.. ما هذا؟ رأس تمثال شبعاد؟ كانت الأشكال تتحوّل ولا تمكث إلاّ وقتاً قصيراً. ففي ثوانٍ، تفقد بريقها وتسقط في الثّقب الشّره للمجسام. أمّا شبح منعم فرات فقد تمنّع على فريق الاستوديو، ولم يظهر إلاّ بعد أيّام. لقد أرسل أمامه زوبعةً من الشذرات البصريّة جعلت فنّاني الاستوديو على حافة السّقوط في الثّقب الذي ابتلعها من الإعياء.

كانت شاشة المجسام تقسم غرفة الأطياف السّود قسمين وهميين. فقد كان سطحها الفسفوري الشيءَ اللاّمع الوحيد في الاستوديو، يعوم في الفراغ الأسودِ المتّصل، لكنّه كان يبدو للعيون المحجوبة بالنظّارات اللّوحَ الأسودَ الوحيد في الاستوديو الذي تُقدّم منه أشباحُ الصحراء وتتجسّم في غرفة العرض. وحين سُلّطت على السّطح الخلفي للمجسام أشعّةُ ثلاثة ليزرات، خضراء وحمراء وزرقاء، من زوايا مختلفة، برز أمام فنّاني الصندوق الأسود مرتع مجسّم لتلّ الصحراء، الذي ما عتّم أن اجتذب شبحَ منعم فرات بأبعادهِ الإنسانيّة

الكاملة. كان الشّبحُ أكثر وضوحاً من الظهور الحُرِّ الأوّل، وأقلّ ضجراً. بل كان في أحسن حالاته، أيّامَ كان يتسلّم راتبه الشهريّ أو مبلغاً مغرياً من المال ثمناً لتماثيله. كان يطوي عباءته كعادته على ذراعه، ويرتدي يشماغه المرقّط المطوي على عقاله. وأطلّ من المجسام بالوجه الفطري الذي كان يواجه به الزّائرات الأجنبيّات المولعات. وجه خشن، وأنف مبعوج، وشارب مربّع، وذقن مرتدّ، وعينان ساخطتان، مسلّطتان على الغيلان المرحة ونساء الفرات المكبوسات تحت ثقل صخرة مدوّرة.

خطا الشّبح في غرفة العرض ودنا من النحّات ثمّ اجتازه، ولم يشعر النحّات بأيّ اختراق لجسده. كان الشّبح موجة حرّة تتجوّل في فراغ الاستوديو لا يعرقلها حاجز ولا تتعثّر بشيء. استدار النحّات الحفيد متابعاً شبح جدّه، ثمّ بادر وخاطبه: «ها نحن نلتقي مرّة ثانية. أشكرك على حضورك يا جدّي.»

تجاهل شبحُ منعم فرات هذه العبارة الأُسَريّة، المتعثّرة في ظلام الاستوديو، وراح ينطق بمونولوج طال احتباسه، مواصلاً حديثاً كان قد شرع به قبل ظهوره على المجسام. كان يهدر أو يتلعثم بلهجته الخشنة، متجاهلاً الإيعازات المتتابعة التي استمرّ النحّات في إرسالها إليه عبر جهاز التحكّم في الصّورة المجسّمة:

«چان عندي سوباط على جرف دجلة. هناك فد يوم سويت تمثال من الطّين طوله مترين.. تركته مطروح بالسّوباط ورحت أتغدّى.. ولمّا رجعت شفت أثر رجلين حيوان. ركه؟ حيّ؟ رفش؟ ما أدري. فوگ التّمثال. يوم ثاني كثرت الآثار.. لبدت يم التمثال بالليل. گمره. ضوه البدر. شفت شي يزحف. ذيله طويل. اثنين: ذكر ونثيه. طلعوا من النّهر وصعدوا على التّمثال المطروح. ناموا سوه. ما أدري إنس؟ جنّ؟ حيوان؟ چان عدهم بجم أفطس. عيونهم مدوّرة. حلگهم عريض. التفتوا عليّ وكشّروا. سنونهم ناعمة. خلصوا وضحكوا تالي زحفوا وغطسوا بالماي. يوم ثاني طلعت النثية وحدها. بيهة ريحة قويّة مثل الأسفنيك. نامت على التّمثال وبدت تعوّي. ما گدرت أصبر. گمت ركضت عليها. شَردتْ وغاصت بالنّهر. ذبيت التّمثال وراها. گطعته وصل وشمرته بالنّهر. بنيت سوباط بعيد فوگ الجرف. بديت أنحت تماثيل مرمر. مرمر الموصل الأصفر والأزرگ. وجوه التّماثيل مثل وجوه ذيچ المخلوقات الفطسة. متلاحمة. ثلاثة أربعة. متراصّة. ويّاهم بشر. يعني لا حيوان ولا بشر. نسوان وزلم. حيّات وطيور. قرود. أحبّ الفخاتي السمينات. فدّ ليله فزّيت. شفت داير فراشي عشرين لو خمسين من هاي الزّواحف طالعه من دجله وزاحفة عليّ. صعدت الجرف وتجمّعت يمّ الفانوس. واحد صاعد على واحد. لمّن شافوني بدوا يضحكون ويعوّون. چان فد منظر عجيب. گلت أكيد آنه حلمان. قمبازيّات وفنطازيّات. خفت وهجيت بروحي. عفت السّوباط وشردت وما رجعت للسّوباط. رحت إلى بستان چان صاحبه يريد حارس. هناك عاد نحتت التماثيل الباقية. فد يوم إجاني موظّف من الوزارة. گال نريدك تنحت تمثال للعاصمة. تمثال عالي ينّصب على دجلة. بشارع أبو نوّاس. عاد بديت أنحت تمثال جبير. تمثال فنطازي ماكو مثله بالعاصمة. رجع ذاك الموظّف گال راح نودّيك لمعرض بالخارج. تسافر بالطيّارة. گتله يمعود هاي الطيّارة تطيح ما تطيح. گال لا تخاف. گتله آنه مو واحد. آنه ألف. چان ببالي مستحيل يجي واحد شاف هذيچ الوجوه الفنطازيّة. آنه الوحيد اللّي يعرف هذيچ الدگة. طلعن من أجلي. عبالك هذيچ النثيّة گالت منعم.. منعم. إنته منذور لدجله. لا تسافر.. لا تسافر. على كلٍّ إنته تعرف السيّارة. عد ما كمل تمثال العاصمة رحت أشوف مكان على النّهر يصلح للنّصب. چان تمثال مرمر أسطواني مهول. ركّلت بيه عشرين جسم. رحت بمكان السّوباط الأوّل. چان الماي نازل والسّوباط مهدّم. لكن گلت يصلح هاذه المكان للتّمثال. يبنون قاعدة أبطن النّهر ويخلون عليهه التّمثال. صار المغرب درت وجهي ورجعت. جنت أعبر ساحة النسور ما شفت السيّارة حتّى صار بچمهه جدامي. بچم أفطس. صحت يمعوده ما راح أسوّي التّمثال.. راح أكسره. روحي دخيل الله. روحي. طاخ. جنت محطّم. دجله أسود.. العالم أسود. جرّتني الفطسة ونزلت بيّه للنّهر.. من إجت سيّارة الإسعاف ما وجدو بس عظام.. كومة عظام. أخذو يشماغي.. راحوا..»

حثّه النحّات على مواصلة الكلام، وأرسل إيعازاً لم يستجب له شبحُ منعم فرات، الذي بدا مستعدّاً للرّجوع إلى الصّحراء. أراد النحّات أن يخبره بفقدان التّمثال بعد وفاته، لكن سحنته غامت وشحبت ألوانها. أفلح النحّات أخيراً في إيصال سؤاله عن اسم التّمثال. اعتدلت صورة منعم فرات على المجسام، وقال: «آنه ما سمّيت تماثيلي. كلّ واحد شكل. يمكن چان اسمّي التّمثال الچبير طبس..»

استغرب النحّات من الاسم فقال منعم فرات: «يجوز أسمّيه طنز.. بيه سحنة طنازه. كلّ تماثيلي هالشّكل. تتطنّز. تخيّل تمدّ لسانهه وره ظهرك..»

عادت صورته إلى آدميّتها الفانية. اليد راعشة، والعين كليلة، والجسد مخذول أمام صلابة الحجر. قبل وفاته ترك كتلاً منقرة ومخدّشة، لا عمق فيها ولا مرح. وحين همَّ بالعودة إلى عالمه اتّخذ صورة أحد هذه التماثيل النّاقصة. أراد النحّات أن يثيره فأرسل إيعازاً عن الرّاحة الأبديّة لسعاليه ومخلوقاته نصف الآدميّة وهي تثوي في ظلّ بصرياثا. لم يفهم منعم فرات هذه الإشارة فصاح بالنحّات الحفيد: «آنه مو شيطان ولا ملك. چنت عفريت صرت طيف. آنه روح.»

ثمَّ اختفى من غرفة العرض، مخلّفاً وراءه على المجسام وهجاً من طبس الأوّل.

٣ ـ غسق

واصلَ النحّاتُ الحفيدُ نزهاتِ التصوير بكاميرا ثانية تعمل بأشعّة

اللّيزر المتناغمة مع أطياف الفراغ اللاّمنظورة. قذفته الطّريق الدّائريّة السّابعة إلىٰ منحدر الصّحراء. كانت الشّمس تستعدّ للهبوط خلف منحنىٰ الأفق الرمليّ الفارغ، حين ارتقىٰ التلّ وأصبح وحيداً وسط الفراغ السّاكن، في مركز ظلّ المدينة الآخر الذي تسكنه الأطياف. وحين استعاد في ذهنه حجوم المخلوقات الصّغيرة المتوارية التي ضخّمها المجسام في الاستوديو، أحسّ بوقوفه في فسحة لا تزيد علىٰ راحة كفّ، كمخلوق ارتقىٰ من عصور المسخ الأولىٰ، وعاد توّاً من بلاد النمل. بل انبعث من ثقب شعب الأطياف، مستطلعاً الكائن الآخر الذي يمسك آلة تصوير ويقف علىٰ التلّ المقابل. مَن كان الصيّاد الحقيقي؟ النحّات أم ظلّه المنبعث من المدينة الأخرى؟ معضلة ستزوّد قصّتنا بالطّاقة عند هذه المرحلة.

تتميّز كاميرا الغسق عن كاميرا الأطياف بقاذفتها الأنبوبيّة القصيرة التي تنتهي بصندوق الرقائق الفوتوغرافيّة، يعلوه مجهّز الطاقة الكهربائيّة، وبحاملها الثلاثي الأرجل. ثبّت النحّات آلة التصوير علىٰ الحامل وسدّد الأنبوبة القاذفة لأشعّة اللّيزر نحو الأطياف التي تستعدّ لقيامة الغسق. أشعّة الشّمس فوق البنفسجيّة قد أرهقتها وأركنتها للسّكون طوال النّهار. بعد فترة من التعرّض ينبعث من الكاميرا شعاع أحمر، متقطّع، يحفّز الأطياف الخاملة فتبدأ بامتصاصه ثمَّ عكسه علىٰ الرّقائق الفوتوغرافيّة الحسّاسة. سقط الشّعاع بنضبات قصيرة لم تتجاوز جزءاً ضئيلاً من الثانية علىٰ الظلّ القادم من بلاد النّمل، الذي رأىٰ النحّات صيّاداً يسلّط أشعّة الموت علىٰ شعبه المسالم. ومن زاوية إسقاط الشّعاع، اعتقد النحّات أنّه يبعث الأطياف من الموت، يكتشف شعباً من الكائنات اللاّمنظورة تسكن نسخة مجاورة لمدينته الأصليّة.

في الزورات التاليات تكاثرت ظلال الغسق التي طاردها النحّات بشعاع كامير‌اه المحفّز. كانت تترك آثار أقدامها علىٰ سفوح التلّ، وهي تقترب من الكاميرا العجيبة. أمّا تجسّدها الكامل فكان ينجزه المجسام في استوديو الرّؤىٰ المجسّمة. أوّل طيف أظهره المجسام كان مقبرة السيّارات المستهلكة والآليّات المدمّرة في الحرب. كما برزت مبطّخة واسعة تُرك فيها البطّيخ دون قطاف. لقد أحاط الشّعاع بجوانب المزرعة، واندفعت البطّيخات النّاضجات طائرة نحو أبصار النحّات ومساعديه بلونها الأصفر المثير. ثمَّ جاءت أطلال النّسخة الثانية من المدينة. نسخة مصغّرة تطابق تماماً الأبراج والطّرق والبيوت والبشر في المدينة الأصليّة. أشباح دقيقة الحجم بدأت تتقدّم بأبعادها المجسّمة. كانت هذه أثمن صورة كامنة في الصّحراء، وأغزرها رشحاً بالرّؤىٰ المرئيّة المفاجئة.

«أكنّا نبحث عن هدف غير هذه الصّورة الفريدة؟ هذا هو هدفنا. في داخل هذه النّسخة صورة لكلّ شيء فقدناه. هنا صورتنا نحن جميعاً.»

قال النحّات لمساعديه المبهورين في ظلام الاستوديو. كانوا وحدهم بين سكّان المدينة يبصرون أهدافهم الغائبة، حقيقتهم الهاربة. تدافعت علىٰ المجسام أشباحُ النّسخة المصغّرة من المدينة. كانوا مضطربين، واهنين كنزلاء دار رعاية للمسنّين. انفصل عنهم شبحٌ بدين، وتجسّد في وسط الغرفة بقامته البشريّة الاعتياديّة وقال: «بدريّة آني عوني. بس لا نسيتي الفلوس.. فلوس أخويه هاشم.. يطلبني ميّة دينار.»

ثمَّ هبط شبح آخر من المجسام راعش اليدين، ونطق بذات اللّهجة القديمة: «شلونچ أمّ حازم؟ النّخلة.. النّخلة حملت؟ قشمرنه الگصاب. تسمّمت باللّحم.. مشتهي باميا أمّ حازم.. صلّحتي الثلاجّة؟ ها؟ ما أسمع. لا؟ لعديمته؟ شلون؟ وديه للمصلّح أبو لينا.. مات؟ خطيّة. كلشي تغيّر ورانه.»

هكذا توالت الأطياف المذعورة، بعد أن فضح تحليلُ الرقائق الفوتوغرافيّة أسرارَها المتحرّكة. كانت تتدافع وتتشاجر كما كانت تتزاحم علىٰ شبابيك الأسواق المركزيّة، وخزّانات مياه الشّرب، ومحطّات انتظار الحافلات والقطار. ملقاة علىٰ قارعة الطّريق أو مضجعة في الملاجئ والمهاجع العامّة أو تشقّ طريقها بين جُزُر اللّحم المعلّقة في خطاطيف المجاز. أطول سلسلة من كتل الرّعب المجسّم. لحم، لحم يملأ الاستوديو ويقطر دماً في الظلام.

بادر جهاز التحكّم الالكتروني وقطع سلسلة العرض المجسّم هذه، فأنقذ قصّتنا من الاتّجاه في زقاق الأشباح المسدود، أو كنّا وصلنا جميعاً إلى ظلال مخابئ الأمس المنسيّة، العنابر الرّماديّة لـ «الشماعيّة».

قال النحّات لمساعديه: «لا أعتقد أنّهم يستعملون أسماءهم الحقيقيّة. لا يتذكّرون اسماً لمخلوق عاش معهم. أغلب الظنّ أنّها أسماء مخترعة.»

وحين أفرغت المطيافات خزينها، وظنَّ أركانُ الاستوديو المقنّعون بالنظّارات نفادَ ذخيرتها من الأطياف، برز علىٰ المجسام شبحٌ معروف لأهالي المدينة. يتّصل جهاز التحكّم في الاستوديو بدماغ المدينة الكبير، وفي اللّحظة التي فُتح فيها الاتّصال مع الدّماغ انطلقت موجات صور الأشباح الضوئيّة المجسّمة في قابلوات الألياف البصريّة إلى تلفازات بصريانا ـ شاهد المواطنون شبح منعم فرات، وظلال النسخة المصغّرة، ثمَّ الشّبح الجديد لإدريس بن سينا، مهندس برج الرّؤيا. تجسّم إدريس قائلاً:

«ما أبهج اللّحظة التي أقدر فيها أن أتجسّد أمامكم. عدتُ توّاً من بلاد مجاورة. بنيت لسكّانها برجاً مماثلاً لبرج مدينتنا. إنّها مدينة جديدة قامت هناك. يا لنسل آدم! مازالوا يصدّقون الأوهام العملاقة. إنَّ المباني العالية تذكّرني بأخي سنمار. بناء المدن، الزّواج، القتال! ما أثقل فضائح الحياة! ما أسعدني لأنّي اختفيت في مملكتنا الثانية، ظلّ مدينتنا. علينا أن نؤمن بالنّسخة الثانية من كلّ شيء. لا هناء إلاّ في النسخة الصغرىٰ، حيث وجودنا لا يعدو أن يكون وجوداً ذرّيّاً متناهي الصّغر، لامنظوراً، وحيث كلّ عمل ننجزه كان قد أُنجز من

قبل.. قد لا تصدّقونني.. في النسخة الثانية من بصريانا كلّ شيء معكوس بحجم ميكرون. هنا نسخة ميكرونيّة من برج الرّؤيا ودار الطباعة والجامعة والمطار والمستشفىٰ.. هنا أبناؤكم وزوجاتكم وأصدقاؤكم الذين رحلوا قبلكم.. لقد ملّت الأرض العالية خطواتهم وأجسادهم وكلماتهم وضحكاتهم فأرسلتهم إلى الجانب الأقصىٰ منها. يعومون كالزّبد في الضوء.. الضوء الذي لا ينطفئ أبداً. هنا لا يضايقكم مخلب أو هراوة. هنا المدىٰ ينفذ إلىٰ أدقّ جزء. شريان نملة. حلم سمكة. قطرة عطر. هنا الأشياء الضائعة. كلّ الأشياء الضّائعة. حمار أمّ عمرو مع حمير نوح.. المغنّون والمصوّرون والقصّاصون.. أيّامكم.. أوراقكم.. أضلاعكم.. أعضاؤكم.. هنا الضّوء كالزّبد..»

تحلّل الشّبح مع ضوء عبارته الأخيرة وانسحب ذيله وراءه في زبد المجسام الفسفوري الذي خلا من الصّور.

قال النحّات: «يا للشّبح الفكه! يصرف الموتىٰ أوقاتهم في السخرية من الأحياء.»

طفت ابتسامة علىٰ وجوه المبرمجين، هي ابتسامة الأشباح التي طاردت الكائنات الضوئيّة الشفّافة. لم يغادروا الاستوديو منذ أيّام، نصف أحياء، نصف ظلال، أيقاظ وما هم بأيقاظ.

عاد النحّات وقال: «كما لا أظنّ هؤلاء جميعاً موتىٰ. ربّما مايزال بعضهم يعيش بيننا حيّاً، لكنّهم حجزوا لهم موضعاً في النّسخة الثانية. وسواء أرحلوا أم لم يرحلوا، فإنّ كلّ فرد في المدينة الأصليّة اصطنع لنفسه شكلاً فراغيّاً يتوارىٰ به عن الأنظار حين يأتي دوره. وهكذا تكاثرت هياكلُ الفراغ المتوارية، وأصبح لكلّ كائن في المدينة شاخص هناك، حتّى قبل أن يستعدّ للرّحيل. في يوم ما ستغدو مدينتنا

خالية تماماً، كما تبدو المدن المهجورة في الأفلام الخياليّة. البنايات والطّرق والبيوت فارغة تماماً، قبل أن تأتي أشباح مسافرة من مدينة مجاورة فتحتلّها وتسكنها. دورة من الرّحيل بين نسخ كبرىٰ ونسخ صغرىٰ. أفهمتم فكرتي؟ إذا كنّا نفكّر بتصميم لتمثالنا، فلن يكون إلاّ نسخة من تمثال سابق. لننتظر فقط. إنّ تمثالنا موجود هناك في ظلّ المدينة، حيث نقله الرّاحلون معهم. لم يظهر تمثالنا بعد.. لكنّه سيظهر يوماً علىٰ المجسام مع تلك الكائنات الشفّافة التي ستتكاثر علىٰ المجسام..»

منذ ذلك الانبعاث المفاجئ للأشباح في الاستوديو، أطلق النحّات علىٰ غرفة العرض المجسّم تسمية «الغرفة السّوداء للقيامة» واختصرها إلى «غسق».

٤ ـ طبس الثاني

يعود فرات الرّابع من جولة تصوير، ونعود نحن إلى معضلةٍ جديدة في قصّتنا. فلو اتّفقنا مع النحّات علىٰ إقامة هيكل معدنيّ لتمثال يعلو فوق الرّمال خمسة عشر متراً، فما الارتفاع البديل لتمثال الكائنات الظلّيّة، تنصبه في بوّابة نسختها؟ أيناسبها في هذه الحال تمثال لا يرتفع إلاّ سنتمترات قليلة؟ هل تقبل بتمثال واحد أو نزرع الصحراء بعشرات من الهياكل اللاّمعة، تعلّق عليها الأطيافُ أجراسَ الرّياح؟ ومن أجل مَن تُقام هذه التماثيل التي ستتكاثر عاماً بعد عام؟ أهي لأحياء بصريائا أم لأشباحها؟

إنّها معضلات تتحدّىٰ الأرقام والحجوم والمساحات والأشكال والأزمنة، لكنّها تداعت حالاً أمام تناسخ الأطياف التي بدأت تتزاحم علىٰ مجسام الاستوديو، مرحة طليقة، تجري أو تزحف أو تندفع نحو عيون النحّات والمبرمجين الذّاهلة من المنظر المجسّم في الفراغ. وهي حقّاً لم تتحرّك خطوة واحدة في الفراغ، ولم تمسك أصابع النحّات الذي تقدّم خطوات للمسها شيئاً محسوساً من أجسادها الضّوئيّة المتقلّبة.

غدا المبرمجون أمام عمليّة تدمير هائل لحواسّهم البصريّة، قبل أن يفيقوا من ذهولهم ويتبادلوا الرّأي مع قائدهم النحّات حول تسمية هذه الكائنات المتحوّلة. قال أحدهم: «إنّها أشكال خرافيّة لا يعلم إلاّ الله كيف تجمّعت في الصّحراء.» وأجاب النحّات: «ألم تروا مثلها من قبل؟ تذكّروا فقط تماثيل منعم فرات الرافدينيّة.»

قبل لحظة التجسّد هذه، كان النحّات يبتكر أوصافاً للمخلوقات اللاّمنظورة. كان يتخيّل هياكل نور، أطيافاً، ظلالاً شفّافة، تسكن النّسخة الثانية من المدينة. أمّا اليوم فهي شيء آخر غير تلك الهيئات. أمس تقدّمت ظلال البشر. أمّا اليوم فمسوخ المدينة السّالبة. المسوخ مع البشر، ولربّما أشكال أخرىٰ تنتظر خارج الأشعّة. إنّها أقرب لأن تكون مسوخاً ضوئيّة لتماثيل منعم فرات، وقد بدأت الخروج من قمقمها الصخريّ والتجسّم في غرفة القيامة السّوداء المضاءة بالأشعّة. مسوخ لا تُمسك ولا تُمثل في حجر أو معدن، بل إذ تُوصف هذه اللّحظة فهي بعد لحظات أشكال متحوّلة. وإذا كانت قصيرة العمر علىٰ المجسام، تتحوّل أو تتراجع إلى ثقبها السّالب، فإنّها لا تفنىٰ، وستحاول الرّجوع في شكل جديد.

«أتوقّعتم أن نعثر علىٰ مخلوقات كهذه في الصّور التي التقطناها؟ إنّها قيامة صغيرة لتماثيل ذلك النحّات الفطري. بل قيامة تمثالنا الذي سيصمّم علىٰ هيأة شكل منها. اقبضوا علىٰ مخلوق.. يكفينا واحد منها.». ثمّ ابتلعت رمال المجسام صوت النحّات.

سأبتدع أكثر ممّا أصف. فلأستبقنّ المطيافات قبل أن تخترع لنا شريطاً متحرّكاً من التماثيل. هاكم برنامجي: هامات صلع، وجوه فطس، أطراف قصيرة تتسلّق الأكتاف. فكوك قويّة وأذقان ناتئة. ثقوب العيون الخالية من الأجفان أو الحدقات المفتوحة عن هلع أو دهشة أو سَرَحان. أفواه مفتوحة، إيماءات عذاب لحظة المسخ. لكن هذه مجرّد أوصاف عامّة معروفة لمن شاهد تماثيل منعم فرات الأصليّة، المنتمية إلىٰ عالم لم تمسسه يدُ التطوّر، تتحاضن فيه الغيلانُ والسعادين والأفاعي وأشباهُ البشر بأوراكها وأطرافها القصيرة ظهراً لظهر أو بطناً لبطن، في وضع مزدوج الجنس، أبّده الحجر عند منتصف لحظة التحوّل.

وهنا حرّرها المجسام من تأبّد الحجر، من قبضة العذاب، وأعادها إلى بداية لحظة التحوّل، والتجمّع والتفرّع. كانت تتكاثر وتتوالد في حفلة بدائيّة وتأبىٰ العودة إلى الصيرورة والتطوّر الإنسانيين. الجسد الملتحم يفرّع وجوهاً ثنائيّة متقابلة أو متظاهرة. والجسدان يولّدان أربعة وجوه متضادّة في الاتّجاه. والأجساد المركّبة تجذب إليها أجساداً حيوانيّة تحشر نفسها بين الأطراف والأكتاف والأوراك. زالَ عنها الغمّ والخطر الذي حجّرها في عالم البشر، وجمعها الضّوء المجسّم في رابطة لاجنسيّة، وزمانيّة ما قبل التحجّر. وإنْ كانت تلتفت لتسخر من شخص، فمن خالقها منعم فرات الذي اضطر إلىٰ نشرها في حلمه الطليق. لقد سبقها إلى المجسام، ثمَّ لحقته سارحة في مرتع فسيح.

كان المجسام يرسم مسخ الأطياف بدقّة هولوغرافيّة، عارضاً حراشف جلودها وحزوزه، جلود الحجر القديم المخدّش. يغيّر منظور تشكّلها ويعرضها بأبعاد كلّيّة، مظهراً أدقّ تفاصيل عناقها والتحام أطرافها وأوراكها، اندماجها الكامل، نشوة وجوهها الشّاخصة إلى شيء تصيخ السّمع إليه ولا تدرك كنهه. خرساء، عمياء، ذاهلة، لكن شعوراً واحداً يمتلك كيانها الصّوري: الخوف الغريزي من أن تفرّقها يدّ إنسانيّة. كانت تستعيد بسحنات فارغة من الانفعال اللّحظات التي سبقت مسخها وأبّدَتها بوضعيّات لاتطوّريّة، ارتداديّة إلى أعماق الكهوف التي حفظتها من الشّيخوخة والبلىٰ حتّى لحظة انبعاثها هذه.

بعد هذا العرض الشّامل، أخذ جهازُ التحكّم ينتقي الأشكال

المتحوّلة ويصنّفها، أو أنّها استجابت لإيعازات المبرمجين فاندمجت في تكوين أخير، مركّب من عشرة مخلوقات لاجنسيّة ملتصقة تتشبّث بساقيْ طائر ضخم. بدأ التشكيل نقطة ضوئيّة اقتربت علىٰ المجسام الفارغ إلاّ من امتداد الصّحراء، ثمّ حطّ الطّائر بمخلوقاته العشرة الملتصقة علىٰ قمّة التلّ.

تكرّرت الصّورة المجسّمة الأبعاد في الأيّام التالية، وفي كلّ عرض كان الطائر يغيّر وضعه علىٰ التلّ. وفي العرض الأخير نشر الطّائرُ جناحيه محاولاً تخليص مخلوقاته المتلاصقة من قاعدتها والانطلاق بها. ثمّ اختفت الصّورة وغرق التلّ في زبد المجسام الصّحراوي. كانت لحظات كافية كي تسجّل الحاسبات أبعاد الصّورة، وتصمّم الشكل النهائي للتمثال. هكذا ولد طبس الثاني، التمثال الحادي والخمسون في سلسلة رؤىٰ النحّات المساوية لسنوات عمره.

٥ ـ غسق أخير

ينتصب طبس الثاني اليوم في بوّابة بصرياثا، علىٰ قوس الصّحراء وسط هوائيّات الاستقبال، ومرآة الأبعاد، والأسطوانات الموسيقيّة، هيكلاً حديديّاً مغلّفاً بصفائح الألمنيوم والقصدير. كتلة مستقرّة من الخفّة والإشعاع ترتفع إلى خمسة عشر متراً، ويتمدّد حجمها الآف الأمتار عند احتساب المساحة الكلّيّة لوجوه الهيكل المحيطيّة. أمّا صورته علىٰ المجسام فتظهره شاخصاً يفصل المدينة الأصليّة عن نسختها المصغّرة، ورأس موجة مستمرّة تتذبذب مسافات بعيدة تنشر جناحي الطّائر في الصباح وتطويهما مع وداع الشّمس. كلّ ذلك خلّفه النحّات وراءه، وسبق موجة تمثاله إلى ثقبه السّالب في صحراء الأطياف.

حين اكتملتْ تصاميمُ التمثال، قُدّمت إلى مشغل التماثيل في مركز الفنون. كان النحّات يتابع تركيب هيكل التمثال علىٰ التلّ وفي المطيافات، أو يستقرّ أمام المجسام ليسترجع الأوضاع المتغيّرة للتمثال قبل نصبه. وفيما كان التمثال ينمو في الزّمن والظّلام والفضاء الوسيع للصحراء ساعةً فساعةً، كان جسد النحّات يتشبّع بشحنة مدمّرة من الإشعاع اللاّمحسوس جرعة فجرعة. وفي يوم اكتمال نصب التمثال علىٰ التلّ، بدا النحّات لفريق الفنّيين والعمّال أشبه بشبح ضوئي فارغ من الدم والأعصاب والعظام. كانت ظهيرة شتويّة باردة، انتصب فيها التمثال بين الرّافعات والسقّالات متعجّلاً الانطلاق، ساحباً خلفه الكائنات العشرة المتلاصقة. «انتظر حتّى الرّبيع. انتظر حتّى الشّمس»، همس النحّات للطّائر العملاق. كان انطلاقاً رائعاً، ومقاومة جنونيّة. واكتفىٰ الواقفون أسفلَ التمثال، والمعلّقون فوق الرّافعات، بتخمين كنه العلاقة بين الطائر والأشكال العشرة، أو مَن كان يسحب الآخر. إذ يبدو العشرة كأنّهم يتمسّكون بقدمي الطّائر ويسحبونه إليهم، فيما كان الطّائر يحاول الطيران بهم نحو الغيوم وتخليصهم من قوّة التصاقهم. ولَكُمْ أن تتأمّلوا في اللّغز المستقر الذي تركه فرات الرّابع وراءه علىٰ أبواب بصرياثا. لكن أيّ إبداع عظيم يسير في الاتّجاه المضاد لروح مبدعه، ويخطّ سطور نهايته!

لم يجذب سرّ التمثال أحياء بصرياثا وحدهم، والمسافرين القادمين إليها، بل رصدَ المجسامُ في الاستوديو استمرارَ زحف أطياف الصّحراء ومسوخها اللاّمنظورة نحو التلّ. كانت هناك جوقات هازلة متفرّقة علىٰ الشّاشة المجسّمة، لا ينقصها إلاّ أن تشرع في الضّحك أو البكاء أو الغناء. لكنّ الجوقات تحجّرت كتماثيل خرس زرقاء فاقعة، عرضها المجسام إزاء أفق الصّحراء الممتدّ برماله: منظر ما قبل المسخ، ما قبل الحزن والبهجة والكلام والرّقص، ما قبل الشرّ والخطيئة والغرور والجشع والسّفاهة. كائنات عادت إلى كينونتها المجهولة التي سبقت وجود منعم فرات الجدّ، وفرات الحفيد الرابع، وأحياء بصرياثا، تلوذ تحت أجنحة التمثال الذي بزغ هيكله في وسطها منفرداً بجبروته، مسيطراً بلغزه.

تلاشت الصّور، وحدّق النحّات طويلاً في زبد المجسام الفارغ، مفكّراً بالرّحلة المديدة بين نسختي المدينة، والأزمنة التي أنشأت كياناً وقوّضت كياناً في انديام متعاقب. ثمّ انتقل بسيّارته إلى الدّوائر الأبديّة السّبع المحيطة باستوديو الرّؤىٰ المجسّمة التي أنجبت طبس الثاني.

إنّه الآن علىٰ الطريق الدّائريّة الخامسة وقد استعاد في ذهنه الفكرة القديمة عن «المدينة المكتفية». أمّا الطّريق السادسة فقد أسرعتْ في فصله عن حقيقة الصّورة الأصليّة لمدينته. بعد ساعات لن يعرف أيّهما أكبر: النسخة الأولىٰ أم الثانية. وحين انتظمت عجلاتُ سيّارته في الطريق السّابعة أيقن بانفلاته من جاذبيّة موطنه وعائلته وتماثيله الواحد والخمسين. كان قرص الشّمس يودّع طبس الثاني، فطوىٰ التمثال جناحيه، فيما ركّز العشرة المشدودون إليه أقدامَهُم في الرّمال.

تقدّم فرات الحفيد إلى التلّ، الذي ألقىٰ عليه التمثال ظلاًّ غارباً مديداً. لم يكن وحيداً مع تمثاله، بل لم يكن قطّ وحيداً، وقد شعر بالأطياف تحيط بهما، فكأنّه يشقّ له طريقاً في سوق مزدحمة. أحسّ بضغط هوائي يتقدّم من التلّ، لكنّه لم يبصر شيئاً متحرّكاً. كانت الذبذبة تتبعه فابتعد قليلاً كي يفسح السبيل للظلّ الخفيّ الذي يتحرّك نحوه. لم يخامره الشكّ في أنّه ظلّ سيّارة سريع، لن يفلح في تجنّبه. أقدام قليلة، لحظات قصيرة، عرف فيها مصيره الذي لن يكون مغايراً لمصير جدّه.

مضت علىٰ ارتحال فرات الرّابع سنوات طويلة، كان خلالها يقود شعب الأطياف إلى أبواب بصرياثا، أو يقيم لها تماثيل شبيهة بتمثال طبس الثاني، صغيرة لامنظورة، لا تعلو إلاّ سنتمترات، بين أطلال النسخة الثانية من المدينة.